ليبيا

احمد الفقيه

حـرب الكبريـاء

كان ذلك في السادس من اكتوبر عندما استيقظ شيخ صالح من نومه في الصباح الباكر وبقايا الرؤيا التي شاهدها ما زالت تملأ عينيه ، فقد رأى اعلاما زاهية الالوان تخفق عاليا بمحاذاة النجوم ورأى جيادا من اكرم وانبل واجمل انواع الخيول وهي تسد منافذ الدنيا وتملأ المكان ضجيجا بصهيلها ووقع خطاها عندما تعدو ، وشاهد اعراسا تقام في السماء واستمع الى الغناء والزغاريد والموسيقى تتصاعد من كل مكان !

ملأت البهجة قلب الشيخ وهو يستعيد في ذهنه ما شاهده البارحة في المنام .

لكن صحيفة الصباح تجاهلت تماما الحلم الذي رآه الشيـخ تلك الليلة وخرجت صفحاتها خالية من اي اشارة او ذكر لذلك الحلم !

ولم يكن مذيع الاخبار في المذياع بافضل من الصحيفة فقد تـلا على الناس نشرة اخبار الصباح دون ان ياتي ولو من بعيد على ذكـر الرؤيا التي شاهدها الشيخ الصالح في المنام !

حتى الناس في الشارع وهم يبدأون نهارهم الجديد منطلقين في طريقهم الى المدارس والمعامل والمكاتب والحقول ومختلف ميادين العمل ومجالاته لم يكن يبدو ان احدا منهم يقيم اي اعتبار لما رآه الشيخ في الليلة السابقة !

كان ذلك يوم السبت السادس من اكتوبر عام الف وتسعمائـة وثلاثة وسبعين ميلادية !

كان الصباح ذلك اليوم صباحا عاديا بكل المقاييس لا يعد بشيء جديد على الاطلاق !

وكان الشيخ قد طوى الحلم في قلبه ومضى في طريقه لا يكلـم احـدا ..

لعله لم ينظر اليوم حتى الى التقويم ليعرف ان ذلك هو يـوم السادس من اكتوبر ولعله لم يكن يخطر على باله ايضا ان عمر الهزيمة بلغ اليوم الفين وثلاثمائة وعشرة ايام بالتمام والكمال فلا شك انه قد توقف عن احصاء ايام الهزيمة منذ ان مرت الالف يوم الاولى دون ان يحدث شيء ، لقد فقد بعدها الامل في يوم نصر قريب ، اسلم امره الى الله واتجه اليه يطلب حسن الختام وترك الامر لاجيال تأتي من بعـده .

الفان وثلاثمائة وعشرة ايام ولعل الافضل ان نحسبها ساعة بساعة او دقيقة بدقيقة ، فقد كان وقع الحياة في زمن الهزيمة بطيئا بطئا قاتلا ، كل دقيقة لها عذاب ، ان شيئا في نفوسنا كان على طول المدى يئن ويتوجع كأن قدما خرافية تسحقه بلا هوادة ، وطالت ايام الانسحاق والهزيمة وامتدت حتى اوصلتنا الى مرحلة كنا خلالها قد فقدنا كـل عافية نفسية وعقلية وتحول كل شيء في حياتنا ونفوسنا الى هلوسـة ومرض وحمى انعكست في ادابنا وفنوننا ، فاذا باشهر اغنياتنا هـي (السح ، الدح ، امبو) واشهر ملاحمنا المسرحية هي (عكاشة عماشة) واشهر كتابنا واوسعهم نفوذا وانتشارا هم كتاب الدروشه وتحضير الارواح ، واعظم اشرطتنا السينمائية هو (خلي بالك من زوزو) . وتوقفت منابع الفن الجميل وانتهى الابداع والابتكار وانتشرت موجة من ايذاء الذات وقهرها وجلدها بالسياط وتمزقها بالاظافر حتى الموت، وتخصص في ذلك شعراء كبار وسياسيون معتزلون صاروا يحترفون الكتابـة ويسجلون ارقاما قياسية في التوزيع !

وتفرغت مدينة كاملة في العالم العربي هي (بيروت) لبيع الهزيمة وتجفيفها وتعليبها وتعبئتها في صناديق وزجاجات وسلال واستعمال افخر انواع الورق في لفها وتغليفها .. وبيعها لنا بالقطاعي !

الفان وثلاثمائة يوم وفوقها عشرة بالتمام والكمال ونحن نتجرع (خروع) الهزيمة ، زيتا لزجا ليس لمذاقه المر حدود ، نحس به في حلوقنا وتتناوله مع اطباق الطعام على موائدنا ، ونشربه عند الصباح في فنجان قهوتنا ، ونلتقي بطعمه مرا لزجا في احاديثنا وحكاياتنا وسهراتنا واسمارنا . والنكسة صارت لافتة فوق جباهنا مكتوبة بكل اللغات بدليل اننا نذهب احيانا الى الخارج ومهما كانت لغة القوم فهم سرعان ما يكتشفون امرنا ، ويقرأون حروف لافتة العار على جباهنا ويقومون من فورهم يضعون لنا زيت (الخروع) في طعامنا وقهوتنا !

الفان وثلاثمائة وعشرة ايام منذ الخامس من حزيران ، جاءت بعده ستة حزيرانات عجاف شمطاء ، كئيبة ، قبيحة النظر محنية الظهر ، تقوست انوفها كمناقير الغربان ، وفي كل مرة تأتي كان حجم المأساة في قلوبنا يزداد اتساعا ، ورقعة الامل تزداد ضيقا واظلاما ، ولا ادري كيف كنا خلال هذه السنوات العجاف نقيم حفلات الزواج وننجب الاطفال وننجز الاعمال ونحن غرقى في بحيرة الرماد ، بل انني لا ادري حتى الان كيف اننا خلالها ، جميعا عشنا ، وكيف اننا في يوم من ايامها لم نكتشف انفسنا وقد سقطنا جميعا على ارصفة الشوارع ... موتى !

فقد كان حجم الهزيمة بما لم تتعود عليه نفس جبلت على العزة والكبرياء طوال تاريخها ، ان تهزمها شرذمة هي بلا شك سقاطة شعوب الارض كلها وتفرض عليها هزيمة ، قاسية ، مرعبة اوسع من صحراء سيناء واثقل من جبال الجولان !

الى ان جاءت ليلة السادس من اكتوبر وشاهد الشيخ الصالح في المنام حلما ، وفي تمام الساعة الثانية ظهرا تحول حلم الشيخ الصالح الى حقيقة فاجأت العالم كله وعبرت يد الحلم مياه القناة فوق قارب من المطاط وهناك رفعت قبضتها لتقضي وبضربة واحدة على كل الحزيرانات الحزينة في قلوبنا وتشعل نارا نضيء الكون كله ، وتمزق الظلام كله ، وتعيد الروح الى البدن الذي دهسته العربات الصدئة لقطار طوله الفان وثلاثمائة وعشرة ايام .

ليس مهما ما تحققه الحرب من نتائج بعد اليوم ..
فلقد ادت هذه الحرب نتيجتها منذ اول يوم !!

لقد كانت حربا من اجل الكبرياء .. وليست مجرد حرب لاسترداد الارض او ردع العدوان او الدفاع عن حق مغتصب .. فهل كان عار الهزيمة يزول لو اخذنا حتى نصف الكرة الارضية .. سلميا !!

الاسبوع الثقافي
١٩ تشرين الاول

امطار تشرين ..!

وقف معلق الصحيفة الغربية مندهشا .
كانت النار تسقط من السماء ، وطلقات المدافع والصواريخ كالشهب تملأ الافق ، وطائرات العدو تتساقط محترقة كاوراق الخريف ، وصفارات الانذار تولول في الجو ، والبراكين التي استيقظت تملأ الدنيا عودا ولهبا ، وكان الناس في دمشق والمنصورة يخرجون الى الشوارع والشرفات واسطح المنازل فرحين مهللين يستمتعون بمرافبة القنابل والطائرات التي تسقط من السماء !!

وقف معلق الصحيفة المسكين ، مندهشا ومستغربا وحائرا لما يرى .. فهذا مشهد لم يقرأ او يسمع او يشاهد له مثيلا .

وكتب الى صحيفته يعبر عن اندهاشه لهؤلاء الناس الذين لا يهرولون الى المخابىء مذعورين عندما تشتعل الارض والسماء بلهيب المعارك وانما يخرجون للافاة اللهب مبتهجين فرحين .. وذكر في تعليقه انه غير قادر على تفسير ما رأته عيناه !.

من اين للمعلق المسكين ان يعرف ؟.

من اين له ان يدرك ان ما ظنه لهبا وقنابل وطائرات مشتعلة ، هو لم يكن كذلك في اعين المواطنين العرب ، فلم يكن ما ذهب الناس الى ملاقاته هو اللهب والشظايا واجنحة الطائرات المحترقة .. وانما هو موسم الامطار الذي انتظروه طويلا ، انه الغيث الذي يهبط من السماء بحمل الخصب والخير والنماء !

فهذه هي امطار تشرين التي عشنا طويلا نحلم بها ونصلي لها صلاة « الاستسقاء » وننتظر قدومها منذ ربع قرن مضى !

ولذلك ، فانه عندما هرول المعلق المسكين الى المخبأ ، وجد المخبأ فارغا لم يذهب اليه الا هو ، وظن في نفسه انه قد اخطأ الطريق ، فكيف لم يتزاحم الرجال والنساء والاطفال والشيوخ للاحتماء به مثله، وعندما تسلل الى كوة صغيرة يرى من خلالها ما يحدث بالخارج شاهدهم جميعا يملأون الشوارع والشرفات واسطح البيوت والعمارات يصفقون ويهتفون ويهللون لكل طائرة تسقط من طائرات العدو ، كأن الذي يحدث ليس حربا وانما هو عرس ... نعم ايها المحرر الذي أرسلوه يغطي اخبار الحرب .. فرأى قوما يجعلون الحرب عرسا .. نعم ان هذا هو العيد والعرس والمهرجان الذي انتظرناه فكان ان خرجنا نساء ورجالا واطفالا نشارك في صنعه ، نهتف له ، نقف تحت شآبيب امطاره نغتسل بها ونغني قائلين لها في نفس واحد .. وصوت واحد ..

اهطلي يا امطار معارك تشرين :
اهطلي .. اهطلي ..
اغسلي ادران العار التي علقت بارديتي وثيابي !!
ازيلي الغبار والاتربة التي غطت رأسي ومنكبي وملامح وجهي ..
اكنسي بسيولك اكداس الهزيمة التي تملأ الاحياء والشوارع والبيوت في بلدي !!

اهطلي يا امطار معارك تشرين وطهري بمياه امطارك الضعف الذي زرعوه في قلبي ، واعيديني من جديد قويا ، شامخا ، منتصرا !

اهطلي .. اهطلي يا امطار تشرين ولا تتوقفي ابدا عن الهطول فانت وحدك سوف تزرعين الخصب في احشاء هذه الارض التي كاد يقتلها العقم ، وتروين جذور السنديان التي اماتها العطش ، انت وحدك ستعيدين للارض خضرتها ، وللسواقي المغنية حناجرها ، وللعصافير اجنحتها التي فقدتها !

فلن تنبت فوق ارضنا الاعشاب والسنابل والزهور الا بك !
ولن نولد في اشجارنا الثمار الا بك !

ولن تغني الجداول وتدور السواقي وتبني الطيور اعشابها وتهب على وجوهنا النسمات المحملة بعطر الارض وعبر اشجارها الا بغيثك !!

امطري يا معارك تشرين .. امطري !
فقد جفت المياه في انهارنا منذ الهزيمة الاولى ..

وامحلت من يومها ينابيع الماء ، واقفرت مخازن الفلال .. وماتت حبات البذار تحت الارض وانتشر فوق ارضنا القحط والجفاف والعطش وصار وجه الارض كالحا كالصوان ، واصاب حياتنا عقم السنـــوات العجاف وهاجرت عصافيرنا واقسمت الا تعود الا يوم ان يأتي المطر ..

وها انت تجيئين الان ..
اهطلي اذا ولا تتوقفي عن الهطول ..

افرغي من احشاء غيومك وسحابك كل ما اختزنته من ماء خـلال ربع قرن من الزمان ، ارعدي وابرقي وافتحي قرب الماء واغمري الدنيا لهبا وسيلا وغديرا وطائرات محترقة !

هكذا خرج الناس يغنون للمعركة في حين هرول محرر الصحيفة الغربية الى المخبأ يكتب بيد مرتعشة مقالا عن هؤلاء القوم الذين يجعلون من الحرب عرسا !!

ثم فجأة توقف المطر ..

رغم النشيد الذي خرجنا جميعا نغنيه توقفت امطار المعارك عـن الهطول !

حتى انت يا تشرين !

يا من عهدناه دائما شهر الغيث والخصب والرياح وهطول الامطار!
ولكن لا يهم .. فالشوق للمطر ولد فينا منذ ان وجدت هـــذه الارض ، وهذا ما لا يعرفه محرر الصحيفة الغربية ، انه لا يعلم ان كل قرية عربية تحتفظ باجمل احتفالاتها للمطر ..

وتصلي صلاتها لكي يهطل المطر ،
وتغني احلى اغانيها للمطر !
ولسوف ننتظر موسم الامطار القادم ..
فلا بد ان تولد فوق سمائنا سحب حبلى بالمطر ..
لا بد ان تهطل الامطار من جديد !
كذب كل ما قالوه لنا ..

كذب ان نحن انتظرنا من السحب الداكنة فوق ابراج لندن ، او سحب ناطحات السحاب في امريكا ، او تلك التي تصنع الجليد في سيبيريا .. ان تأتي لكي تمطر فوق ارضنا !!

لن تأتي السحب من بلاد الاخرين لتصنع اعياد المطر في بلادنا .

ولن تسافر الغيوم من سمائهم لتفرغ غيثها فوق ارضنا !!
لا بد ان يولد السحاب من جديد في سمائنا ..

لا بد ان تتصاعد الابخرة من اراضينا وتصنع لنا سحابنا لكـــي تعود للارض من جديد امطار تزرع الخير والامل والسلام !!

ومنذ ان توقفت امطار المعارك في تشرين .. والمواطن العربي في بلادنا يجلس الى بيته يلصق اذنه بالمذياع يتسقط اخبار النشرات الجوية ، لعلهم يوما يقولون :

« سماء ملبدة بالغيوم .. تنذر بهطول امطار شديدة » .

لكي يخرج بعد ذلك الى الشارع من جديد ، ويعود الى الفناء ، ويتطهر بمياه الامطار ..

الاسبوع الثقافي
٢ نوفمبر

دار الآداب تقدم

الشاعرة العربية الكبيرة

فدوى طوقان

في ديوانهـا الجديد

على قمة الدنيا وحيدا

صدر حديثا ٢٥٠ قرشا لبنانيـا